الرحلة الحديثة

تمهيد

هذه رسائل كتبتها في رحلتي الاخيرة الى اوربا في الصيف الماضي ونشرت تباعاً في المقطم وقد اعدت نشرها هنا بعد تنقيحها واضيف اليها فصولاً اخرى لم تنشر قبل اضف بها فصل [illegible]

١) التل والقنال

كتبت في كاير كريت

قد ترى بلاداً وسيعة وبحراً خضماً ومدينة غاصة بالسكان فلا تفقه لشيء ولا يرتسم في ذهنك غير صورها التي تراها بل قد يقع نظرك عليها وانت لا ترى عنها شيئاً لا علاقة له بها حتى اذا سئلت عنها انكرت انك رأيتها . وقد تنظر شجرة او حجراً او بناء او شيئاً آخر من الاشياء الطبيعية او الصناعية فتمر في ذهنك سلسلة من الحوادث وفصول من التاريخ تشغلك عن كل ما حولك كأنك تقرأ كتاباً نفيساً تخلب مباحثهُ الالباب . وهذا ما جرى لي في اليوم الاول من هذه الرحلة.

قمنا من محطة العاصمة اول امس (٢٥ يونيو ١٩٠٧) وودعنا الاهل والصحب ومرت بنا البلاد تدور كالرحى وتطوى طي السجل وقد احصد القمح وعلا القطن وبشر بخير واسع تفرج به الازمة المالية الحاضرة ويقصر حبل المرابين الذين انتزوا هذه الفرصة السانحة فاعطوا المئة بثمين . غبن فاحش لم نسمع بمثله ولا ذكرت التواريخ ما يضاهيه . وبينا نحن غافلون عما يمر بنا تفكر في ما تنطوي اليهِ هذه الحال اذا استمر تضييق البنوك على الذين خدعهم السماسرة لاحت لنا مقبرة التل الكبير ثم الناحية الغبراء التي زرعت بعلمها لتلطيف هواء الصحراء على رفات الذين ختموا بدمهم العصر الثائر وافتتحوا العصر الحاضر . لكن الزمان لم يدع ابناء هذا القطر حتى تحت الثرى فاني التفتُّ يمنة ويسرة لا أرى رسماً من رسومهم فلم ارَ ما يدل عليها فقلت

مدافن المتفدين الاهلَ والوطنا	ولا ضريحاً ولا نعشاً ولا كفنا
أيعلم القوم ممن زرعهُ نصرٌ	والنيل يرويهِ لا منّاً ولا ثمنا
والعدل والكلُّ في اسطاسهِ شرعٌ	والناس راضون ان سرّاً وان علنا

أن السماء انتي التلّ الكبيرَ سقت محت مظالمَ قاوى عهدها اثرتا

من حين ذُكرت مصر في التاريخ او عُرفت اخبارها من آثارها منذ سبعة آلاف سنة وهي خاضعة للاجانب . دخلها الغزاة من اسيا فتسلطوا عليها ونشأت منهم الدول المصرية القديمة ثم اجتاحها ملوك اشور وجاء بعدهم اليونان فالرومان ثم العرب والشراكسة والترك والى الآن حكامها من غير اهلها . ولم تكن الثورة العرابيّة لرد البلاد الى سكانها الاصليين ولا جاء الاحتلال ليؤيد سلطة الاجانب عليها ولا كانت لهُ الغاية التي وصل اليها بعد ثورة . ومهما كانت غايتهُ فلا شبهة في انهُ صار الآن أصيل من كل سلطة سبقتهُ الى تحرير الوطنيين وترغيبهم في ادارة شؤون بلادهم واقامة العدل في البلاد واعطاء السلطة للقانون . فكأن الثورة العرابية التي حُتمت في التل الكبير بدماء الوف من المحاربين قضت على العصر الغابر . واذا افضى هذا الاحتلال الى صيرورة سكان مصر امة واحدة مستقلة محالفة للدولة البريطانية كامة الترنسفال فيكون قد نال البلاد اسمى ما تطلبهُ من الغايات . ويليق بها حينئذٍ ان تنصب في التل الكبير اعظم تذكار لابنائها الذين ختموا العصر الماضي بدمائهم

جالت هذه الخواطر ببالي في لحظة من الزمان كما في اثرأها سطورًا في لوح القدر ثم مرونا امام الحرجة الكثيفة التي غرسها بردوُد باشر نظارة المالية لتكون مثالاً لزرع الحراج في القطر فذكرتني ما قرأتهُ عن الحراج الكبيرة التي كانت تبنى منها الاساطيل السلطانية ولكنها نضبت بفساد الاحكام كما نضبت كل ينابيع الثروة فقلت ترى هل تعاد الحراج الى هذا القطر أو ليس الارض بدونها اجود قطنًا واكثر ريعًا — هذه مسألة لا تحلّ الاَّ بالبحث والامتحان والمستقبل بذلك كفيل

وظلّ القطار ينساب بنا في تلك البساتين الى ان اشرفنا على القنال الذي فصل القطرين ووصل البحرين فأصرّ الاقارب واناخ الاباعد

لم تنوِ مصر دولة الاَّ حاولت ان تصل البحر المتوسط بالبحر الاحمر إما مباشرة وإما بواسطة النيل . وافلح بعضها فسارت سفن التجار تخر في النيل وتنتقل منهُ الى البحر الاحمر وتسير فيهِ الى الشرق الاقصى لجلب بضائع الهند والصين ولكن لم يمرّ البحران الاَّ في هذا الزمان . وكأني أرى روح دولسبس ترفّ فوق تمثاله المنصوب حارسًا للقنال وترى سفن اوربا واميركا كالمدن الكبيرة العائمة على وجه الماء وبوارج اليابان كالابراج المنيعة تختطي من اقصى الشرق الى اقصى الغرب . وقد خربت طرق التجارة القديمة فانحطت بخرابها بغداد ودمشق وعمّ الضرر اكثر المدائن العثمانية ولم تنجُ مصر من مغبتهِ . بذلت مصر على القنال اموالها وارواح رجالها واستدانت

في سبيل القناصير المقنطرة ولم تجن منهُ نفعاً يذكر حتى الآن . الغس كبير لدائنيهِ تغيم بغاياتهِ فالم للدين عرفوا كيف ينتفعون بهِ وسيبقى اثرهُ خالداً لاقدام دولسبس وهمتهِ ولكن لو امتلكتهُ مصر جزاء قيامها بنفقاتهِ أي لو عرف اسمعيل باشا كيف يستأثر بهِ ويبقيهِ ملكاً حلالاً لهذه البلاد لاوفت يديونها وعادت بصفقة رابحة . ولكن معما خلقها من النبن منهُ لم يخلُ من نفع لها لانهُ حمل دولة من اكبر الدول على الاهتمام بأمرها ولولا ذلك لكانت الثلاثون السنة الماضية مثل الثلاثين التي قبلها . وسيعاد اليها بعد انتهاء مدة امتيازهِ فيحمد اعلوها مرامهم ويكونون قد صاروا اقدر من اسلافهم على الاحتفاظ بهِ والانتفاع منهُ

مشيت على الرصيف المؤصل الى تمثال دولسبس ووقفت امامهُ اعجب بفخامتهِ ودقة صناعتهِ فقلت مخاطباً ذلك الرجل العظيم

يا مارج البحرين يلتقيان انت المثل همة الانسان
قف حيث انت فتلك اعظم وقفة فالخافقان هناك يجتمعان

وعدت اجول في شوارع بورت سعيد واعجب بثروتها المتزايد وبحسن المباني الجديدة التي بنيت فيها ولا سيما لما بلغني ان اكثرها للوطنيين الذين عرفوا كيف يكتسبون من التجارة ويستثمرون الاموال . ورأيت في موظفي الحكومة الذين لقيتهم دلائل الهمة والتدرب على انجاز الاعمال في مواعيدها

وتأخرت الباخرة التي كنا عازمين على ركوبها بما لقيت من الانواء في الاوقيانوس الهندي فلم ترسُ في مرفإ بورت سعيد الاَّ نحو الساعة التاسعة مساء ولولا سفينة كوك التي ينقل بها المسافرون الى الباخرة لاضطروا ان يتبيتوا في التهاوي لان ليس للشركة مكان يقيم المسافرون فيهِ اذا تأخر وصول الباخرة عن القطار الاَّ ان ما حدث هذه المرة لم يحدث من قبل كما قيل لي . والسفينة من اكبر السفن التي تمخر البحر المتوسط

(٢) الباخرة متنوليا

كتبت في بحار مسيطا

الانكليز ملوك البحار قاموا في غفلة من الزمن فورثوا من تقدمهم من الدول البحرية . كانت سيادة البحر للفينيقيين ثم لليونان فالرومان فالبنادقة فاهالي جنوى وبيزا ثم انتقلت الى البرتوغاليين فاهالي هولندا وقبض عليها الانكليز اخيراً باكف من حديد وغالبوا الدول الشمالية عليها فتغلبوهم ولا تزال السيادة البحرية لهم حربية كانت او تجارية

ومن اشهر شركاتهم التجارية شركة Peninsular & Oriental. البنسولار والاورينتال

نشأت هذه الشركة منذ سبعين سنة لتنقل البريد من لندن الى لسبون وجبل طارق فسميت بالبنصولار نسبة الى البنصولا اي شبه الجزيرة التي تشتمل على اسبانيا والبرتغال ثم امتدت في ارسال البريد الى مالطة والاسكندرية فسميت شركة بواخر البنصولار والاوريتنال (اي والشرقية) وجعلت ترسل سفنها الى الشرق الاقصى

واول سفينة ارسلتها الى الهند كان محمولها ١٨٠٠ طن وقوة آلتها البخارية ٥٠٠ حصان اقلعت من لندن في شهر سبتمبر سنة ١٨٤٣ وابحرت حول افريقية بطريق رأس الرجاء الصالح . وسنة ١٨٤٤ صارت هذه الشركة تنقل بريد الهند تتصل بو سفنها الى الاسكندرية وينقل من ثمَّ في القطر المصري الى السويس وتكون سفنها في انتظاره هنالك فتحمله الى سيلان ومدرس وكلكتا وسنغافوره وهنج كنج وشنغاي . وطريقهُ في القطر المصري الترعة المحمودية الى القاهرة ومن ثمَّ على ظهور الجمال الى السويس . وكذا البريد والبضائع الآتية من الهند كانت سفن هذه الشركة تصل بها الى السويس ثم تنقل على ظهور الجمال الى القاهرة ومنها بالترعة المحمودية الى الاسكندرية ومن ثمَّ بسفن الشركة الى اوربا . وكان وسق السفينة الواحدة يحمل على اربعة آلاف جمل . وظلت الشركة جارية على هذا الاسلوب نحو عشرين سنة وكانت تنقل في السنة من البضائع ما يساوي اربعين مليوناً من الجنيهات يربح اهالي القطر من نقلها ربحاً وافراً يحمدون عليهِ بعد القنال وحرمهم منهُ

لما فتح القنال تغيرت شؤون الشركة كما تغيرت شؤون التجارة في القطر المصري وسائر الاقطار الشرقية وكانت الشركة قبل ذلك تتقاضى اجوراً كبيرة لتقوم بنقلها فلما فتح القنال واضطرَّت ان تخفض الاجور كثيراً قلَّ ربحها وكادت تفلس ومرت خمس سنوات وهي في حال النزع الى ان بذلت الهمة في تجديدها وتقويتها وبقي البريد الانكليزي يرسل من الاسكندرية الى السويس براً حتى سنة ١٨٨٨

وقد جرت الشركة في ارتقائها مجرى كل الاجسام الحية النامية فطرأت عليها آفات وقلَّت سيرها حيناً ثم تغلبت الشركة عليها فازالتها وعادت الى نموها المستمر . وقد قطعت سفنها في العام الماضي ثلاثة ملايين ميل ودفعت لمستخدميها ٤١٠ آلاف جنيه ولقنال السويس ٣٣٠ الف جنيه . ولما نشأت كانت سفنها شراعية قليلة جداً محمول السفينة منها نحو مئتي طن والآن عندها ستون باخرة كبيرة محمول بعضها عشرة آلاف طن ومنها الباخرة سنوليا التي نحن فيها الآن فان محمولها عشرة آلاف طن تسيرها ست آلات بخارية قوتها معاً اربعة عشر الف حصان . وطول السفينة ٥٣٠ قدماً وعرضها ٦٠ قدماً وعمقها ٣٧ قدماً وفيها مسرَّة لثلث

مئة ومتين راكباً في الدرجة الاولى ومئة وثمانين راكباً في الدرجة الثانية . وتستطيع ان تحمل ٢٠٠٠ طن من الفحم و ٣٠٠٠ طن من البضائع . والغرف العمومية التي فيها على غاية الاتقان والزخرفة كغرفة المائدة وهي تسع نحو ٣٠٠ شخص يأكلون معاً وفوقهم المراوح الكهربائية تلطف الهواء وفوق منتصف الغرفة قبة عالية مسقوفة بالزجاج الملون في شكل نصف اسطوانة وفوق جوانبها غرفة الموسيقى والجلوس . فيها المقاعد والكراسي الوثيرة والثبة بارزة فوقها تزيد منظرها بهجة ورواء . وبمقابل غرفة المائدة غرفة التسب وهي غاية في الاتساع وحول غرف النائمة محاش كبيرة يقيم الركاب عليها اكثر نهارهم وتحيا فيها الليالي الراقصة . وكل ما في الباخرة من الطراز الاول من حيث الراحة والرفاهة للسافرين في الاقطار الشرقية

وكان معنا كثيرون من الاصدقاء الفضلاء الذين يحلو معهم السفر ويقضي الوقت بالمذاكرات العلمية والادبية كصاحب السعادة امين باشا سامي الذي حوى صدره تاريخ القطر المصري وسير العلوم فيه والدكتور وستر من اساتذة الطب في المدرسة الكلية الاميركية والدكتور حبيب خياط وحسن بك صبري المحامي والدكتور السيد بك توفيق ومحمد بك توفيق بسيم ومرقس افندي حنا والدكتور كوماتوس باشا وكثيرون غيرهم من وجهاء العاصمة وكرائم السيدات

وجملة ركاب الدرجة الاولى ٢٦٩ والثانية ١٧٧ عدا الخدم . والركاب من القطر المصري وحده ٩٨ في الدرجة الاولى و ١٨ فقط في الثانية فهم من هذا القبيل اميل الى الانفاق من الانكليز الذين ركبوا الباخرة من استراليا وتصور الهند

والبحر رهو كأنهُ صفيحة من البلور الازرق مرَّ عليها النسيم قبلما جمدت فجمَّد وجهها تجميداً لطيفاً لكي لا يبقى سطحها على استواء واحد تتأم العين رؤيتهُ . اكتب هذه السطور وقد دارت بنا الباخرة شمالاً حول الساحل الغربي من طرف ايطاليا الجنوبي امام مدينة مسينا وتجلت لنا جبال هذه المملكة القديمة وقد رصعتها القرى والدساكر واكتنفتها الاشجار والحراج وجزيرة صقلية امامها بمعاملها الكبيرة ومداخنها تناطح السحاب . هذه بلاد ايطاليا

بلاد العظام ليوث الصدام ملوك الانام عدول الملوك
محطُّ رحال رجال العلوم واهل الفنون واهل السلوك

ولكن اين اولئك العظام اين الذين ملكوا المعمورة من حدود الهند الى اعمدة هرقل ومن بلاد الروس الى قلب افريقية وجبوا منها الجزية وسنّوا لها الشرائع وباسمهم بنيت

المياكل والمدارس ومجالس القضاء . ابن بوليوس قيصر وبومبي واسبسيانوس ابن الذين قهروا قرطاجنة واستكرا مصر واستولوا على ممالك الاسكندر

" اربى بهم ريب المنون كأنما على الدهر فيهم ان يفرقهم ندر "

بل ان يجعلهم اثراً بعد عين فلا يبقى منهم سوى آثارهم شاهدة على عظمتهم ومقدرة دول الارض ان يحل بها ما حل بهم

" وما الناس الا ظاعن فمودع وثاوٍ فريح الجفن يبكي لراحل
فهل هذه الايام الا كما خلا وهل نحن الا كالقرون الاوائل
نشاق من الدنيا الى غير دائم ونبكي من الدنيا على غير طائل
فما عاجل نرجوه الا كآجل وما آجل نخشاه الا كعاجل "

(٣) من مرسيليا الى اسبانيا

مرسيليا أكبر ثغر فرنسا واوسع ثغور بحر الروم مصرها اسلافنا الفينيقيون وهم سادة البحار وتقلبت عليها الشؤون ولكنها احتفظت بمقامها . ترى في مبانيها دلائل العظمة والجاه القديم والمجد التالد . وكأن الثروة تراكمت على اهاليها فاكثروا من المباني لتشهير اموالهم فزادت على حاجة السكان حتى انك لتجد كلمة " للايجار " (A louer) معلقة فوق اكثر الابواب

دخلنا مرسيليا يوم الاحد سلخ يونيو ورست الباخرة في مرسى الشركة على بعد شاسع من المدينة لكن المركبات كثيرة وخيلها قوية يشيعها اصحابها على ما يظهر مع انه ليس سهلا مرسيليا جمعية للرفق بالحيوان كما في مصر . فاستأجرنا مركبة وسرنا الى الحديقة والمتحف (لونج شان) لعلنا نجد فيهما جديداً لم نره قبلاً وطفنا في الشوارع نقتل الوقت لان ليس في مرسيليا شيء يستحق المشاهدة لم نشاهده قبل الآن . ثم دخلنا مطعماً يؤكل فيه الطعام الذي اشتهرت به مرسيليا وهو يصنع من السمك والكركند والخبز والطردل وكأن المرسيليين لا يأكلون في بيوتهم بل في هذا المطعم والشاهد لكثرة ما رأيناه فيه منهم . والاكل في الاماكن العمومية اقرب الى الفطرة وادعى الى الالفة والاشتراك يذكرنا بعادات العرب الذين كانوا يجتمعون في منازل شيوخهم للطعام . وجاء بعدنا كثيرون من ركاب سفينتنا من الانكليز والاميركيين كأنهم شموا طعامها مثلنا فاحبوا التغيير ولكنهم لم يجدوا كراسي يجلسون عليها فلبثوا في مركباتهم نحو ساعة من الزمان لشدة الازدحام

والفاكهة في مرسيليا كالفاكهة في بيروت والاسكندرية المشمش والخوخ والكمثرى والموز والبرتقال وهي كثيرة رخيصة على جودة انواعها

وقامت بنا الباخرة في اليوم التالي وقد فارقنا نحو مئة وثلاثين من الركاب ليتفرقوا في اوربا او ليذهبوا الى انكلترا بقطار خاص يصل الى مرفإ السفينة ويحملهم الى كلي وأما نحن فرأينا البحر رحرًا فضلنا السفر فيه من قبيل النزهة ولمشاهدة جبل طارق وجاورنا حدود فرنسا صباح الثلاثاء (في الثاني من يوليو) وسرنا محاذين لجبال اسبانيا وكأننا نسير تجاه جبال لبنان . ومنها جبل يشبه جبل صنين في شكله والآكام تنحدر تصل الى البحر كما تصل الآكام في جبل لبنان وقد قادني هذا الشبه الى التفكير في حال بلاد الشام وما مرَّ بها من العبر من حين الفتح الاسلامي الى الآن ثم انتقلت الى التفكير في حال اسبانيا وفتح العرب لها وانبساط رواق الحضارة فيها في عهدهم ثم وقوع الشقاق بينهم وتخاذلهم الى ان دالت دولتهم وخرجوا منها كما دخلوها ولم يبقَ منهم فيها غير آثارهم دالة على ما كان لهم من المجد والسؤدد . وقد اشرت الى ذلك في الابيات التالية

أَلبنانُ هذا ام جبال إسبانيا ... ام الشوق للاوطان احيا الامانيا
فيا بيض ايام تلتها حنادسٌ ... تناولنَ قطريها بعيدًا ودانيا
ويا شبهًا في الطبع والوضع انما ... لعَمْرِ ليالينا نعدُّ الثوانيا
اتى الامويون الشآم وكلهُ ... عمارٌ بواديهِ تفوق المغانيا
فشادوا بهِ مُلكًا خفيًا بناءهم ... من الدهر ان الملك ما ليس فانيا
وقد غادروهُ والخراب محلِّقٌ ... والبوم تنعبُ بدلكَ المبانيا
واسَّوا بلادًا رادها قبلُ طارقٌ ... بهم ليلةً ذلَّت وعزَّت ثمانيا
الى ان قضى الله بشتيت شملهم ... فعادوا كما جاؤوا بريئًا وجانيا

والحقيقة التي يثبتها التاريخ بالاستقراء الطويل ان العدل يعمر البلاد والظلم يخربها فاذا نظرت الى بلاد عامرة فاعلم ان ملوكها وولاتها يعدلون في الرعية واذا نظرت الى بلاد ساد فيها الخراب فاعلم ان العدل فارقها والظلم جاورها . والعدل يشمل الاهتمام بمصالح الرعية والظلم يشمل الاغضاء عنها . فمن ملوك الشرق وممالكهم بهذا المقياس تجد اسباب ارتقائهِ وانحطاطهِ بادية للعيان . وبقي الحال كذلك الى ان تولتِ الامة وتصير حكومتها نيابية فحينئذٍ تتولى في شؤونها يدها ولا يعود للحكام شأن كبير فيها بل يصير الشأن الاكبر للرعية وان تختارهم من رجالها لتولي امورها

جالت هذه الخواطر ببالي ونظمت الابيات السابقة وانا انظر الى جبال اسبانيا وافكر في خلاصة تاريخها ثم التفتُّ الى البحر فاذا هو على زرقتهِ وصفائهِ وقد زاد تجعدًا وانتظم الحبب

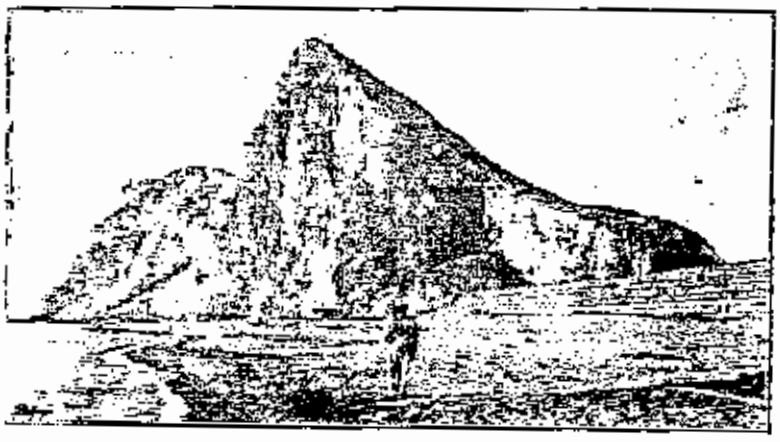

منظر جبل طارق من الشمال الغربي

مطار جبل طارق

قصر المور

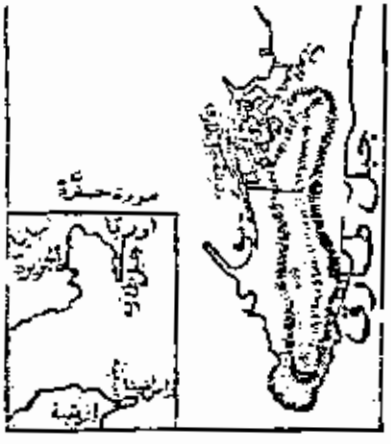

خريطة لجبل طارق وصورة

فوق غضروفه كاللآلىء رُصّع به الصغير والسنبة تخرفيه كالطود الكبير فلا تكاد تشعر بحركته ولا يكاد يشعر بحركتها

(٤) جبل طارق

ساحل اسبانيا الذي مررنا به جبلي كتلة قليل العمارة جدًّا مع انهُ في احسن رقعة من الارض . وقد كنت انظر اليه واعجب كيف يهاجر اهالي اوربا الى قلب افريقية ويحاولون تعمير السودان بحرور المحرق وهبوب السموم والى جزائر البحر المحيط وهي بركانية تتقلبها الزلازل ولا تمرّ بها السفن الاَّ نادرًا ويتركون بلادًا مثل اسبانيا تجتمل اضعاف سكانها وقد كانت في عهد العرب من جنان الدنيا وهم لا يفوتون غيرهم في ترقية الزراعة وتعمير البلاد . وظلت هذه الافكار تجول في خاطري الى ان اشرفنا على جبل طارق وكنت اظنهُ صخرًا قاحلاً من تسميته بالصخر في اللغة الانكليزية فاذا هو مكسوٌّ بالنبات من اشجار وانجم وخضرة كالزرع او كالكلإ لا تبين الصخور فيه الاَّ في بعض المكاسر . الجانب الشرقي منهُ شاهق قائم فوق البحر كالجدار كأن بعضهُ قُدَّ بزلزلة فتمزق وتكسر وجرفهُ البحر ويقي البعض الآخر راسخًا في مكانه كما ترى في الرسم المقابل وهو جبل طارق المشهور في التاريخ

عرفهُ الفينيقيون والرومانيون وسموهُ قلبي او قلبي وسمّوا الراس المقابل لهُ من افريقية ابيلا وهما عمودا هرقل اللذان تنتمي بهما اليابسة على قول القدماء . هذا هو القول الشائع حتى الآن لكني استبعدهُ جدًّا لان الواقف تجاه جبل طارق يرى بعدهُ لسانًا آخر من اوربا تمتدّ جنوبًا وغربًا ويرى جبلاً كبيرًا بعد رأس ابيلا من افريقية تمتدّ شمالاً وغربًا كما ترى في الرسم المقابل فيستحيل عليه ان يحسب ذينك الرأسين نهاية اليابسة

ويظهر لي ان القدماء ارادوا باعمدة هرقل صخورًا قائمة في البحر امام اسبانيا الى الجهة الشمالية الغربية فاننا لما دنونا منها رأيناها قائمة في البحر كالاطواد او كالاعمدة ولا شيء وراءها من اليابسة . واحد منها قائم كالمرم وآخر كالموشور القائم السطوح ومعهما شواهق اخرى قائمة مثلها والبحر يرغي ويزبد حولها وكثيرًا ما كسرت السفن عليها . ولما اتجه نظري اليها ولم ارَ بعدها يابسة لم اتمالك ان قلت هذه اعمدة هرقل لا سواها

وجبل طارق لسان جبلي داخل في البحر تمتد من الشمال الى الجنوب كما ترى في الرسم المقابل طولهُ ثلاثة اميال وعرضهُ ثلثة ارباع الميل وارتفاعهُ ١٤٠٠ قدم يتصل من الشمال ببلاد الاندلس وبينهما سهل منخفض والى غربيهِ مرفأ امين طولهُ ثمانية اميال وعرضهُ خمسة كان من اهم مرافىء اوربا قبل استعمال السفن البخارية . ويقابل جبل طارق من

جهة الغرب مدينة الجزيرة التي عقد فيها حديثاً المؤتمر الدولي للنظر في شؤون المغرب الاقصى. وعلى الجانب الغربي من الجبل مدينة جبل طارق وهي قديمة من القرن الرابع عشر ولكن اكثر مبانيها حديث وفيها نحو ٢٥ الف نفس وبعضهم من الخامية والباقون خليط من اليهود والاسبانيين والعرب ويقال انهم لا يعتنون بتشييد المباني الكبيرة لان حكومة الجبل تستطيع ان تستولي على كل بناء وقتما تريد وتستخدمه في الدفاع ومع ذلك رأينا فيها من الشوارع والمخازن ما يقابل باحسن شوارع القاهرة ومخازنها عدا ما فيها من اماكن النزهة والحدائق الغناء

وهواء جبل طارق معتدل جداً لا يشتد فيه الحر ولا البرد فبلغ الحرارة اعلاها في يوليو واغسطس وهي حينئذٍ ثلاثون درجة او اثنتان وثلاثون واوطأها في فبراير وهي حينئذٍ خمس اوست فوق درجة الجليد ومطره معتدل يبلغ نحو ثلاثين او اربعين عقدة في السنة فهو مثل جبل لبنان من هذا القبيل . وفاكهته مثل فاكهة لبنان وقد اكلنا من كرزه وكمثراه وتينه وتينة كبير اسود مستطيل جداً لم ار قبلاً ما يماثله شكلاً ولا ما يفوقه حلاوة

ولا يخفى ان جبل طارق امنع حصون الانكليز بل امنع حصون الدنيا لا تكاد بقعة منه تخلو من المدافع ومدافعه كبيرة جداً تصل قنابلها الى كل سفينة تمرّ في البحر امامه وله الشان الاكبر عند الانكليز لانهم يصلحون السفن الحربية في حياضه الواسعة ويملأون منها بما تحتاج اليه من الفحم فهو اهم قاعدة لاسطولهم في البحر المتوسط وقد رأيت في طوابيره مدفعين ثقل المدفع منهما مئة طن

ولا يعلم ان احداً حصنه واستخدمه معقلاً قبل طارق بن زياد الذي دخل اسبانيا غازياً من قبل الوليد بن عبد الملك قال ابن الاثير

"ثم ان موسى (عامل الوليد على افريقية) دعا مولىً له كان على مقدمات جيوشه يقال له طارق بن زياد فبعثه في سبعة آلاف من المسلمين اكثرهم البربر والموالي واظنهم العرب فساروا في البحر وقصد الى جبل منيف وهو متصل بالبر فنزله فسمي الجبل جبل طارق الى اليوم. ولما ملك عبد المؤمن البلاد امر ببناء مدينة هذا الجبل وسماه جبل الفتح فلم يثبت له هذا الاسم وجرت الالسنة على الاول ..... ونزل من الجبل الى الصحراء وافتتح الجزيرة الخضراء وغيرها وفارق الحصن الذي في الجبل"

وانتزعه فرديننند صاحب قشتيلة من العرب سنة ١٣٠٣ ثم استرده منه صاحب فاس بعد نحو ثلاثين سنة واستولى عليه السلطان يوسف صاحب غرناطة في اوائل القرن الخامس عشر ثم استرده الاسبان سنة ١٤٦٢ وحصنوه وبقي في حوزتهم الى ان اخذه

منهم الانكليز سنة ١٧٠٤ . وقد حاول الاسبانيون استرجاعه سنة ١٧٧٩ فحصروه وضيقوا على حاميته حتى كادت تموت جوعاً ودام الحصار ثلاث سنوات وانضم الفرنسويون الى الاسبانيين ووضعوا المدافع على اطواف حرّطوا بها الجبل وكان عدد الحامية ٧٠٠٠ نفس لا غير لكنها تمكنت من حرق الاطواف وتغريق المدافع ولم يقتل منها سوى ١٦ رجلاً فاضطر المحاصرون ان يتركوا الجبل للانكليز وهو في يدهم الى الآن

هذه نتف من تاريخ هذا المعقل الحصين لا شأن لها عند قراء العربية الاّ من حيث علاقتها باسم طارق القائد العربي الذي هو اول من جعل هذا الجبل معقلاً حربياً ولم يزل فيه برج حصين من مباني العرب في الطرف الشمالي الشرقي من المدينة كما ترى في الرسم السابق. وقد حملني رؤيتهُ على مراجعة تاريخ تلك الامة العظيمة التي خرجت من بلاد العرب كالسيل المنهمر وفي اقل من قرن نشرت لواءها في الخافقين — راجعتهُ في نفسي وانا جالس على ظهر السفينة وهي تمخر بنا امام الجبل والمرفإ والبحرُ كصفيحة من البلور يكاد يجمد لولا الحرارة الداخلية التي تحرك دقائقهُ وراجعت الاسباب التي مهدت السبل لذلك الفتح الباهر والاسباب التي قلّصت ظل ذلك الشرف الاثيل فرأيت الشعر اصلح وسيلة لجمع الحقائق فقلت

ربةَ الشعر هل اتاكِ حديثٌ ... عن كماة الاعراب من قبل طارقْ
عن غزاة في القفر شبّوا زمانَ الرو ... مُ والفرسُ يملكونَ المشارق
عرشَ كسرى ومصر والشام ثلّوا ... وجروا في الفتوح جرْيَ السوابقْ
حاولَ الروم صدّهم فتصدى ... كل من في ولائهم غير صادقْ
من يهودٍ وصابئينَ وقبط ... والنصارى[1] وكل خصمٍ مشاققْ
نصروا العرْب خفيةً وجهاراً ... لم يحاربْ للروم غير الاصادقْ

***

شمخ الروم قبل ذاك وجاروا ... هل اتاهم ان ليس للخلق خالقْ
واتاخ الفساد والفرس جاسوا ... بحرهُ خائضينَ حتى المخانقْ
واذا الظلم والفساد اقاما ... نضب الحوض من حماة الحقائقْ

***

نصر الله امةً اذ تولّى ... امرها العادلونَ بين الخلائقْ
قام صدّيقها بامدق امر ... وتلاهُ الفاروق بالعدل فارقْ

(١) اي السامرة

وكانوا في المكرمات تيارا وهم الاسد في صدور النيانق
دوّخوا الارض وطّدوا الملك قاموا بفروض الكتاب تحت البارق
ثم عزّوا والملك صار عضوا فاستكنّوا كأنهم في حدائق
وتبارزوا في البذخ فالظلم فالاعتال في ما يعدّ للملك ماحق
شمس عدل ضمّت شعوبا فما كفت فُرَق الشعوب طرائق

الذاكرة وتقويتها

يراد بالذاكرة القوة التي نحفظ بها ذكر ما يمرّ بنا من الحوادث او ما نسمعهُ عنها ثم نتذكّر بها ما نحفظهُ حينما نريد. اي انها تشمل عملين مختلفين الواحد حفظ المعلومات والثاني تذكرها عند اللزوم . وتشمل ايضاً عملاً ثالثاً وهو شعور المرء بأن ما يتذكرهُ هو نفس الشيء الذي حفظهُ في ذاكرتهِ ولذلك فالذاكرة مؤلفة من ثلاث قوى قوة الحفظ وقوة الذكر وقوة العلم بان ما تتذكرهُ هو نفس ما حفظناهُ ولو استعملت احياناً للدلالة على قوة واحدة من هذه القوى الثلاث

والذاكرة ضرورية جداً ولولاها ما امكن حفظ شيء من العلوم ولا من المعلومات . والمرجح ان كل ما نتعلمهُ وكل ما يؤثر فينا يبقى اثرهُ في ادمغتنا دائماً ولكننا كثيراً ما نجد صعوبةً في تذكّرهِ. فيريد الواحد ان يتذكر اسماً او صورة او وزناً وهو يعلم تمام العلم انهُ قد حفظ ذلك في ذاكرتهِ ولكنهُ لا يتذكرهُ حينما يريد تذكّرهُ فيقول اني نسيتهُ الآن ولكنني سأذكرهُ بعد حين

والتعليم يتضمن حفظ المعلومات وتذكرها اي استحضارها عند اللزوم . وهذا الاستحضار عند اللزوم اصعب من الحفظ . ويمكن تقويتهُ بالتدريب والممارسة . وما ضعف الذاكرة الاَّ ضعف قوة التذكر او الاستحضار او سرعة الخاطر

وقد تكون الذاكرة قويةً بالطبع وقد لا تكون قويةً بالطبع بل تقوى بالتربية والتمرين. والتمرين يزيد الذاكرة التقويةَ قوّة كما يقوي الذاكرة الضعيفة . فاذا رأيت شيئاً او سمعتهُ ثم نسيتهُ فاعد رؤيتهُ او سمعهُ مرةً بعد مرة فيزيد تأثيرهُ رسوخاً في ذهنك حتى لا تنساهُ بعد ذلك. وعلى هذا النمط يجري اولاد المدارس في حفظ كل ما يحفظونهُ غيباً نثراً ونظماً وقد يرسخ ذلك في اذهانهم حتى يسهوا يتذكرونهُ من غير عناء بل قد يتذكرونهُ من غير رويةٍ ومن غير فهم.